

الفصل الأول

التعريف بالنبوة

ويشمل الآتي:

- ١- تمهيد.
- ٢- النبوة هبة ربانية.
- ٣- الفرق بين النبوة والملك.
- ٤- ما هو النبي، وما هو الرسول؟
- ٥- الأنبياء صفوة البشر.
- ٦- محمد سيّد الأنبياء والمرسلين.
- ٧- هل يجوز التفضيل بين الأنبياء؟
- ٨- لماذا كان الأنبياء بشرًا؟
- ٩- مهمة الرسل الكرام.
- ١٠- وظائف الرسل صلوات الله عليهم.

obeikandi.com

عَمِيدٌ

- ١ -

لا بد قبل البدء في الحديث عن «النبوة والأنبياء» أن نوضح معنى النبوة، وأن نذكر ملامحها ومزاياها، وأن نبين صفات الأنبياء وخصائص الدعوة التي جاءوا بها، ليتبين لنا الأثر العظيم الذي تركه الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، في المجتمعات التي ولدوا فيها، وبين الأمم الذين بعثوا إليهم، ومدى هذا التأثير في تغيير مفاهيم الأمم وعقائدهم التي نشأوا عليها، فقد انتقلوا بهم من الظلمات إلى النور، وأخرجوهم من الضلالة إلى الهدى، فكانت دعوة الأنبياء إنقاذاً للأمم من برائن الشرك والوثنية، وتطهيراً للمجتمع من أدران التحلل والفساد، والفوضى والاضطراب. . . وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾

فقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى أن الناس كانوا على الهدى وعلى دين الحق، ولكنهم اختلفوا وتنازعوا وأفسدوا في الأرض، وحادوا عن الطريق القويم، فبعث الله

(١) سورة البقرة: الآية (٢١٣).

تعالى لهم النبيين مبشرين ومنذرين. . «روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كانوا على الحق حتى اختلفوا فبعث الله إليهم نوحاً والنبيين من بعده».

وأوضح الباري جل وعلا الغاية من بعثه الرسل الكرام فقال وهو أصدق

القائلين:

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١).

كما جعل كل رسول منقذاً لقومه من ظلمات الجهل والضلالة فقال جلت

عظمته:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٢).

* * *

(١) سورة النساء: الآية (١٦٤).

(٢) سورة إبراهيم عليه السلام: الآية (٥).

النَّبُوَّةُ هِبَةٌ رَبَّانِيَّةٌ

- ٢ -

النبوَّة فضل إلهي وهبة ربانية، يهبها الله لمن يشاء من عباده، ويختص لها من يريد من خلقه، وهي لا تُدرَك بالجد والتعب، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١).

فهي إذاً «اصطفاء واختيار» ولا تكون إلا لمن اختاره الله تبارك وتعالى لها، ممن هم أهل لحملها، لأنها حمل ثقيل، وتكليف عظيم، لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرجال، كما قال تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين:

﴿إِنَّا سَلَقْنَاكَ قَوَّلاً ثَقِيلاً﴾^(٢).

والنبوة لا تكون بالوراثة، ولا تكون بطريق الغلبة والاستعلاء، إنما هي اختيار، يختار الله سبحانه وتعالى لها أفضل خلقه، وصفوة عباده، يختارهم لحمل الرسالة، ويصطفاهم من بين سائر البشر لهذا العمل الجليل كما وضع البارئ جل وعلا ذلك في كتابه العزيز فقال تقديست أسماؤه:

(١) سورة آل عمران: الآية (٧٤).

(٢) سورة المزمل: الآية (٥).

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَكِيمٌ
بَصِيرٌ﴾^(١).

وقال جلت عظمته :

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وقال في معرض الحديث عن بعض الرسل :

﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾^(٣).

اعتراض المشركين على نبوة محمد :

وحين اعترض المشركون - من كفار قريش - على رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه واستغربوا أن تنزل «الرسالة» على يتيم فقير، لا يملك من أسباب القوة والغنى شيئاً، وليس له من مظاهر السلطان والملك ما يجعله في نظرهم عظيماً، وحين رأوا - بنظرهم القاصر - أن النبوة ينبغي أن تكون لغني عظيم، شريف، من السادة والزعماء، من أشرف قريش وعظماؤها، ومن سادتها ووجهائها، جاء الرد الإلهي الزاجر، فحكى الله سبحانه وتعالى شبهتهم، وردَّ عليهم بأسلوب مفحم قاصم فقال وهو أصدق القائلين :

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتِ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٤).

(١) سورة الحج : الآية (٧٥).

(٢) سورة آل عمران : الآية (٣٣).

(٣) سورة ص : الآية (٤٧).

(٤) سورة الزخرف : الآية (٣٢).

فآية الكريمة ردت على المشركين سخفهم و حماقتهم حين زعموا أن النبوة لا تليق إلا برجل من الأغنياء ومن العظماء، لا بإنسان فقير يتيم كيتيم أبي طالب، وقد رد الله تعالى عليهم بأن النبوة اصطفاء واختيار، يختار الله لها من شاء من خلقه ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وإذا كانت النبوة أعظم شأناً من المال والجاه، والسلطان، وكانت حكمة الله العلية قد حددت لكل إنسان رزقه، ولكل مخلوق حظه من المال والرزق، والمال بالنسبة للنبوة أمر حقير، فكيف يُترك الأمر الجليل العظيم وهو «الرسالة والنبوة» إلى أهواء الناس ورغباتهم؟؟ فإذا لم يشأ الله تعالى أن يترك أمر الرزق لأهل الأرض بل قسم ووزع وحدد لكل نصيبه فكيف يترك أمر النبوة إلى أهواء الناس؟ وهذا هو السر الدقيق، في التعبير بقوله جل وعلا:

﴿مَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١).

فالذي وهب الرزق هو الذي وهب النبوة.

* * *

(١) سورة الزخرف: الآية (٣٢) نفسها.

الفرق بين النبوة والملك

- ٣ -

إن النبوة هبة من الله، واختصاص من العلي القدير، لمن شاء من خلقه، وهي تختلف عن الملك والسلطان في نقاط جوهرية، نذكر منها أهمها وهي:

أولاً: النبوة لا تكون بالإرث فولد النبي لا يكون نبياً بطريق الإرث عن أبيه، بل هي بمحض الفضل الإلهي، والاصطفاء الرباني ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ، وَنُوحًا، وَآلَ إِبْرَاهِيمَ، وَآلَ عِمْرَانَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾.

ثانياً: النبوة لا تُعطى لكافر أبداً، ولا تعطى إلا للمؤمن، بخلاف السلطان والملك فقد يعطى لغير المؤمن، قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ، وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي، أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟﴾ وكما قال عن «النمرود» الذي ادعى الألوهية في زمن إبراهيم الخليل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ؟ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ثالثاً: النبوة خاصة بالرجال، ولا تكون للنساء أبداً^(١)، والحكمة من تخصيص

(١) ما يقوله بعضهم: إن النبوة قد تكون في النساء، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَإِخْرَجْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾ الآية. فإنه استدلال خاطيء، لأن الوحي ليس بإنزال ملك، وإنما

الرجال بالنبوة دون النساء أن النبوة عبء ثقيل، وتكليف شاق، لا تتحملة طبيعة المرأة الضعيفة، لأنه يحتاج إلى مجاهدة ومصابرة، ولهذا كان جميع الرسل في محنة قاسية مع أقوامهم، وابتلوا ابتلاء شديداً في سبيل تبليغ دعوة الله: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾، والدليل على أن النبوة خاصة بالرجال قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوْا اَهْلَ الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ (١).

قال في الجوهرة:

«وما كانت نبياً قط أنشى ولا عبداً قبيحاً في الفعال»

رابعاً: النبوة لها ميدان واسع، وغرض نبيل، وهدف من أسمى الأهداف ودعوتها الأساسية، إنما هي الدعوة إلى (الإيمان بالله) والدعوة إلى (الإيمان بالآخرة) وإشارتها على الحياة الدنيا الفانية، التي يطمع فيها كثير من الناس ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ والملك يتعارض مع هذه الدعوة، لأنه مظهر من مظاهر العظمة الدنيوية التي جاء بالتهديد عنها الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.. فلو كان الأنبياء هم (الملوك) والأمراء والسلاطين، ثم دعوا الناس إلى الزهد في الدنيا، والتعلق بالآخرة لما كان لدعوتهم أي وقع أو أثر في النفوس.. لأنهم يعيشون عيش الملوك ثم يزهدون الناس في هذه الحياة. والداعي إذا لم يكن بسيرته قدوة فلن يكون لكلامه أي تأثير.. وليس معنى هذا أنه يمتنع اجتماع (النبوة والملك) في إنسان، فقد يجتمعان في الشخص الواحد كما حصل لسيدنا

هو بطريق (الإلهام) فقد أخبر تعالى بأنه أوحى إلى النحل: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذوا من الجبال بيوتاً...﴾ فهل يصح أن نقول: إن النحل قد نبأه الله تعالى؟ كذلك هنا ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ فإنه وحي إلهام، لا وحي نبوة، فتدبره واللَّهُ يرعك.

(١) سورة النحل: الآية (٤٣).

(سليمان بن داود) عليه السلام، ولكنه قليل ونادر، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ
الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرٍ وَّ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي
الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١﴾.

* * *

(١) سورة ص: الآيات (٣٥ - ٣٩).

ماهو النبيُّ ، وماهو الرسولُ؟

— ٤ —

النبي هو: إنسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع، ولكنه لم يكلف بالتبليغ.

وأما الرسول فهو: إنسان من البشر، أوحى الله تعالى إليه بشرع، وأمرَ بتبليغه.

فالرسالة إذاً أعلى مرتبة من النبوة.. لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، وعدد الأنبياء لا يحصى إذ يزيد عددهم — على ما جاء في بعض الآثار— مائة وعشرين ألفاً (١٢٠) ألفاً^(٢). أما الرسل فهم قلة، والذين ذكروا في القرآن الكريم يجب الإيمان بهم تفصيلاً وهم (٢٥) خمسة وعشرون وكلهم من الرسل وهم كالاتي:

(آدم، نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب،

(٢) روى الإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، أنه قال: قلت: يا رسول الله أيُّ الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: نعم، نبي مكلّم، قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال ثلاثمائة وبضعة عشر، جأً غفيراً. وفي رواية أبي أمامة قال أبو ذر قلت: يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمئة وخمسة عشر جأً غفيراً، رواه أحمد في المسند ١٧٨/٥.

يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، إدريس، يونس، هود، شعيب، صالح، لوط، إلياس، إيلسع، ذو الكفل، عيسى، محمد) صلوات الله عليهم أجمعين .

وهؤلاء يجب الإيمان بهم (تفصيلاً) بمعنى أنه يتعين التصديق برسالتهم بأشخاصهم وأسمائهم، لأنهم ذكروا في القرآن الكريم، أما بقية الأنبياء فيجب الإيمان بهم (جملة) بمعنى أن نصدق بأن هناك أنبياء غير هؤلاء الذين ذكروا في الكتاب العزيز، لأن الله تبارك وتعالى قد أخبر عنهم بقوله :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (١).

وقد جمع هؤلاء الرسل في آية كريمة، ذكر منهم فيها (١٨) ثمانية عشر، والسبعة الباقون ذكروا في آيات متفرقة من كتاب الله الكريم . . أما الآية الكريمة فهي قوله تعالى :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلُّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا وَكَأَلَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢).

وقد جمع بقية الرسل في بيتين من الشعر، تسهياً للحفظ، وهما :

« في تلك حُجَّتُنَا منهم ثمانية عشر من بعدِ عشرٍ، ويبقى سبعة وهموا »
« إدريس، هود، شعيب، صالح وكذا ذو الكفل، آدم، بالمختار قد ختموا »

(١) سورة النساء: الآية (١٦٤).

(٢) سورة الأنعام: الآيات (٨٣ - ٨٧).

وأما الدليل على أن الرسل الكرام مأمورون بتبليغ الرسالة، وأنهم يختلفون عن الأنبياء في هذه النقطة بالذات، فهو النص القرآني الكريم وهو قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾^(١).

وقوله تعالى مخاطباً سيد الرسل :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢).

* * *

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٩).

(٢) سورة المائدة: الآية (٦٧).

لأحد من البشر - مهما سما في سلم الكمال - أن ينال مرتبة النبوة عن طريق الرياضة النفسية، أو الجهد في الطاعة والعبادة، فإن النبوة لا تنال بالكسب ولا تحصل بالعزم والمثابرة على فعل الخير والطاعة كما مر معنا، إنما هي هبة من الله واصطفاء واختيار ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ .

التفاضل بين الأنبياء :

وهؤلاء الأنبياء الأطهار ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة، بل بعضهم أفضل من بعض، فقد جعلهم الله تعالى درجات، وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (١) . .

ويقول أيضاً :

﴿ وَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ ذِكْرًا ﴾ (٢) .

ومن الرسل الكرام من سماهم القرآن الكريم (أولي العزم) وهم قادة الأنبياء وسادتهم وقد ذكرهم الله تعالى بالثناء العاطر، وأمر رسوله ﷺ أن يقتدي بهم في جهادهم وصبرهم، فقال عز من قائل :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ . . . ﴾ (٣) الآية .

وإنما سُموا (بأولي العزم) لأن عزائمهم كانت قوية، وابتلاءهم كان شديداً، وجهادهم كان شاقاً ومريراً . . فمنهم من صبر على البلاء والتكذيب القرون الطويلة، وتعاقبت عليه الأجيال العديدة، لأنه عمّر طويلاً، ولكن حياته كانت كلها محناً وشدائد (كنوح) عليه السلام الذي لبث في قومه قريباً من ألف عام ولم يؤمن معه إلا قليل، وصدق الله حيث يقول :

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٣) .

(٢) سورة الإسراء: الآية (٥٥) .

(٣) سورة الأحقاف: الآية (٣٥) .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾.

ومنهم من وصلت به الشدة والكرب، ونال من قومه الشدائد والأهوال، إلى درجة أنهم حكموا عليه بالتحريق بالنار، كإبراهيم عليه السلام، خليل الرحمن، فقد كانت عقوبته في سبيل تبليغ دعوة الله الإحراق بالنار، ولكن الله عز وجل نجاه فأمر النار أن تكون برداً وسلاماً عليه:

﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِنْبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٢).

وهكذا بقية أولي العزم كموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كلهم أودوا؛ واضطهدوا وشرّدوا، فتحملوا الأذى والعذاب، وصبروا على البلاء والشدة:

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ﴾ (٣).

ولهذا استحقوا أن يكونوا قادة الأنبياء، وسادة الرسل، وأن يحملوا اللواء في سبيل عزة الإنسانية، وانتشالها من براثن الشرك والضلال، إلى نور التوحيد والإيمان.

* * *

(١) سورة العنكبوت: الآية (١٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان (٦٩ - ٧٠).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٤٦).

محمّد سيّد الأنبياء والمرسلين

- ٦ -

وأفضل الرسل إنما هو صفوة الخلق، وخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ، فهو آخر الأنبياء في البعثة، وأفضلهم في المنزلة والرتبة. . كما أن القرآن آخر الكتب السماوية وهو أشرفها وأفضلها، فقد ختم الله تعالى بمحمد ﷺ النبوة، كما ختم بالقرآن الكريم الوحي، فكان ختام المسك، وواسطة العقد، قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١).

ومما يدل على أن محمدًا ﷺ سيد الرسل وأفضل الأنبياء والمرسلين، أنه لم يبعث نبي قط إلا وقد أخذ الله تعالى عليه العهد والميثاق إن أدرك محمدًا في حياته ليؤمن به، وليكون من أنصاره وأتباعه فهذا من أعظم الشواهد على جليل قدره، وعظيم فضله ﷺ، وفي ذلك يقول المولى عز وجل:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ (٢) النَّبِيِّينَ لَمَآءَ آتَيْتُكُمْ مِّن كِتَابٍ (٣) وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

(١) سورة الأحزاب: الآية (٤٠).

(٢) ميثاق النبيين: الميثاق: العهد المؤكد بيمين ونحوه.

(٣) لما آتيتكم من كتاب: أي بسبب نعمتي عليكم بالنبوة والوحي.

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي^(١) قَالُوا ءَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٢﴾ .

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه مبيّناً علو المنزلة التي أعطاه الله إياها بالسيادة في الدنيا والآخرة:

«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي، آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع، وأنا أول من يحرك حلق الجنة، فيدخلنيها الله ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين على ربي ولا فخر...»^(٣).

وأشار العلامة (القاضي عياض) في كتابه «الشفاء» إلى منزع لطيف من القرآن الكريم في أفضلية الرسول ﷺ على سائر الرسل الكرام، وبيان أنه أشرفهم وأفضلهم. وذلك لأن الله تعالى قد خاطب الرسل وناداهم بأسمائهم فقال عز من قائل في شأن إبراهيم عليه السلام:

﴿يٰٓإِبْرٰهٖمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ؕ اِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿٤﴾ .

وقال في حق نوح عليه السلام:

﴿يٰٓنُوْحُ اهْبِطْ بِسَلٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ أٰمِرٍ مِّنْ مَّعٰنَا... ﴿٥﴾ .

(١) إصري: أي عهدي، فقد أخذ الله العهد على جميع الأنبياء أنهم إن أدركوا زمان محمد ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه، وينضوا تحت لوائه، ويصبحوا من أتباعه ﷺ، وما أعظمه من شرف!!

(٢) سورة آل عمران: الآية (٨١).

(٣) الحديث رواه الترمذي في المناقب برقم: ٣٦١٨، وقال: حديث حسن.

(٤) سورة الصافات: الآية (١٠٥).

(٥) سورة هود: الآية (٤٨).

وقال في نداء موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أُصْطَفِيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَاءً اتَّيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١).

وقال مخاطباً عيسى بن مريم عليه السلام:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۖ ﴾ الآية (٢).

وهكذا بقية الأنبياء صلوات الله عليهم ناداهم بأسمائهم التي سموا بها إلا خاتم الرسل ﷺ فقد خاطبه الله تعالى بوصف النبوة أو الرسالة، إظهاراً لعظيم قدره، وجلال فضله، فقال عز من قائل:

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٣).

وقال تبارك وتعالى:

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤).

وقال جلَّتْ حِكْمَتُهُ:

﴿ يٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۗ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥).

وقال جل شأنه:

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٤).

(٢) سورة المائدة: الآية (١١٦).

(٣) سورة الأحزاب: الآية (٤٥).

(٤) سورة الأنفال: الآية (٦٤).

(٥) سورة المائدة: الآية (٦٧).

﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا
ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ...﴾ (١) الآية .

ولا نجد في كتاب الله عز وجل آية فيها خطاب للنبي ﷺ باسمه الصريح ،
مثل ما جاء في خطاب الأنبياء ، وإنما كل الآيات الكريمة تخاطبه بلفظ النبوة وليس
في الآيات الكريمة آية واحدة تقول : يا محمد . . وهذا من أطف الإشارات إلى
عظيم قدره ﷺ ، وإلى أنه أفضل الرسل على الإطلاق (٢) .

فصلوات ربي وسلامه على صفوة الخلق ، المبعوث رحمة للعالمين ، الذي
خصه الله تبارك وتعالى بالشرف العظيم الذي لا يدانيه فيه أحد ، وجعله سيد الأولين
والآخرين ، ولقد أحسن من قال :

«محمد صفوة الباري ورحمته وخيرة الله من عرب ومن عجم

وقال شاعر طيبة :

وأراد ربك أن يُجَلِّي رحمةً في الكون فاختار النبي محمداً
قد زينت شمائل محمودة فعدا على كل العوالم سيّداً

* * *

(١) سورة المائدة : الآية (٤١) .

(٢) انظر كتاب الشفا بحقوق المصطفى ﷺ للإمام القاضي عياض .

هل يجوز التفضيلُ بين الأنبياء ؟

- ٧ -

وقد يقول قائل: كيف تفضلون بين الأنبياء والرسل، وقد قال القرآن الكريم:
﴿لَا تَفْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ...﴾؟؟.

والجواب: أن المراد في الآية الكريمة من التفريق بين الرسل هو أن يؤمن الإنسان ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما فعل أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حيث آمنوا برسالة بعض الأنبياء وكفروا برسالة الآخرين، ففرقوا بين الرسل، وقد وضع الله سبحانه وتعالى هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(١).

وليس المراد من التفريق (التفضيل) بين الرسل، بدليل أن الله تعالى قد فضل بعضهم على بعض بصريح القرآن فقال عز من قائل:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾^(٢) الآية.

(١) سورة النساء: الآيتان (١٥٠ - ١٥١).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٥٣).

وقال تعالى :

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (١).

فهذا المراد من الآية الكريمة وقد أوضحتها الآيات الأخرى، كما أوضحه بيان

الرسول ﷺ حيث قال كما في صحيح مسلم :

«والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به، إلا أدخله الله النار» (٢).

بعثة الأنبياء :

من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده . . ومن جميل لطفه بهم وإحسانه إليهم . . أن بعث إليهم الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين، ليكونوا منارات للهدى. وأعلاماً للفضيلة، ونجوماً زاهرة في سماء الإنسانية، تضيء للعالم طريق الخير، وترشدهم إلى السعادة، وتنقذهم من برائن الشرك والوثنية، وتسمو بهم إلى مدارج العز والكمال.

وقد جرت سنة الله في خلقه ألا يعاقب أمة قبل أن يبعث إليها رسولاً، يدعوها إلى البر والخير، وينهاها عن السوء والشر، وذلك حتى لا يدع لأحدٍ من البشر عذراً، ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ ولثلا يقول الناس يوم القيامة ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ أو يتخذوا منها ذريعة لعدم الإيمان، أو حجة على الله تعالى في عدم استحقاقهم للعذاب :

﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلُكُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّن قَبْلِ أَنْ نَّذَلَ وَنُخَذَى﴾ (٣).

* * *

(١) سورة الإسراء: الآية (٥٥).

(٢) انظر: صحيح الإمام مسلم ١/١٣٤.

(٣) سورة طه: الآية (١٣٤).

لماذا كان الأنبياء بَشْرًا ؟

— ٨ —

لما كان الغرض من بعثة الأنبياء الكرام، عليهم أفضل الصلاة والسلام، أن يكونوا سفراء بين الله تبارك وتعالى وبين عباده، حتى يبلغوا الناس أوامر الله تعالى ونواهيه، ويرشدوا الخلق إلى ما يحبه الباري جل وعلا وما يبغضه، ويكونوا قدوة للبشر في سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم. . . ولما كان لا بد في الوسيط (السفير) أن يكون ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه. . . لذلك بعث الله تبارك وتعالى الرسل من البشر، ليبلغوا أوامر الله، ويدعوا الناس إلى سعادة الدنيا والآخرة.

ولو كان الرسل من (الملائكة) لما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم أو يجتمعوا بهم. . . ولكان للناس حجة في عدم الاتباع للرسل وهو أن يقولوا: هؤلاء الذين بعثهم الله إلينا، وأمرنا باتباعهم ليسوا من جنسنا. . . ليسوا بشراً إنما هم (ملائكة) وطبيعتنا تختلف عن طبيعتهم، فهم أسمى منا خلقاً، وأطهر منا عملاً، وأكرم مقاماً. . . لأن الملائكة الأطهار كما أخبر عنهم رب العزة جل وعلا:

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

وأنهم دائماً في عبادة لا ينقطعون عنها أبداً:

(١) سورة التحريم: الآية (٦).

﴿يُسَيِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقُرُونَ﴾^(١).

ثم إن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وليس فيهم شهوة أو ميل إلى المعصية، لأنهم عباد مكرمون. ومن ناحية أخرى لو كان الرسول الذي يبعث إلى الخلق (ملكاً) لما استطاع البشر أن يأخذوا عنه، أو يجتمعوا به، لأنه إن جاءهم بصورة (ملكية) فزعوا وصعقوا وولوا الأدبار هرباً وفزعاً منه، لأنهم لم يعهدوا مثل هذه الصورة ولم يروا مثل هذا الخلق العظيم.

روى أن النبي ﷺ رجع في بعض أيامه من غار حراء فسمع صوتاً فنظر أمامه فوجد (جبريل) عليه السلام قد جلس على كرسي وقد ملأ ما بين السماء والأرض، ففزع وارتعد، ورجع إلى بيته وهو يقول: دثروني دثروني.. كما رآه مرة أخرى وقد بسط جناحيه فسد ما بين المشرق والمغرب. ولوجاءهم بصورة بشرية – أي تمثل لهم الملك بصورة إنسان – لشكوا في أمره، والتبس عليهم الحال، هل هو ملك أم هو بشر؟.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعنى في معرض الرد على المشركين، حين طلبوا أن يكون النبي المرسل من الملائكة لا من البشر:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ^(٢) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا^(٤) عَلَيْهِ مَا يَلْبَسُونَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: لو جعلنا النبي ملكاً كما اقترحوا لجعلناه في صورة رجل من البشر، ليتمكن اجتماعهم به وأخذهم عنه، وحينئذ يلبس عليهم الأمر،

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٠).

(٢) لولا: (لولا) هنا بمعنى هلاً فهي للتخصيص، وليست حرف امتناع لوجود.

(٣) لَا يُنظَرُونَ: أي لَا يُؤخَرُونَ، وَلَا يُمَهَّلُونَ.

(٤) وَلَلَبَسْنَا: اللبس: الخلط، يقال لَبَسْتُ عَلَيْهِ الْأَمْرَ أَلْبَسَهُ لَبْسًا أي خلطته، والآية من سورة

الأنعام: الآية (٩).

هل هو ملك أم بشر؟ فيشكّون في أمره، ويعودون إلى سيرتهم الأولى في طلبهم أن يكون النبي من الملائكة.

قال العلامة القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ٣٩٤/٢: قوله تعالى ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ أي: إنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة، لأن كل جنس يألف بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر (ملكاً) لنفروا من مقابلته، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعمّ المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به، ويسكنوا إليه، لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم، حيث كانوا يقولون عن محمد ﷺ إنه بشر، وليس بينه وبينهم فرق، فيلبسون على الناس بهذا ويشككونهم، فأعلمهم الله عز وجل أنه لو أنزل ملكاً في صورة رجل لوجدوا سبيلاً إلى اللبس (الشك) كما يفعلون^(١).

وقد ذكر تبارك وتعالى في آية كريمة أخرى الحكمة من كون النبي من البشر، لا من الملائكة، وذلك أن المرسل ينبغي أن يكون من جنس المرسل إليهم. . . فلو كان الذين يسكنون الأرض من الملائكة لبعث الله تعالى إليهم نبياً (ملكاً) كما قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُل لَّوْكَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمشُونَ مُتَمَيِّنِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾^(٢).

(١) انظر تفسير القرطبي ٣٩٤/٢.

(٢) سورة الإسراء: الأيتان (٩٤ - ٩٥).

اعتراض المشركين :

ولقد اعترض المشركون على بعثة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، كيف يكون من البشر وهو يدعي النبوة؟ قالوا: إنه بشر مثلهم يأكل، ويشرب، وينام، ويمشي في الأسواق!! واتخذوا من ذلك ذريعة لتكذيبه والظعن في رسالته. . وطلبوا أن يكون معه من الملك، والجاه، والسلطان ما يؤهله للنبوة: المال الوفير، والكنوز العظيمة، والحدائق الغناء، ومن كل زهرة الدنيا مما يكون عادة للملوك والعظماء. . ثم لما رأوه فقيراً يتيماً، استبعدوا ذلك على الله - جلَّ وعلا - فأنكروا رسالته، وقالوا: إنه ساحر يسحر الناس بحلاوة لسانه، وطيب كلامه، وما جاء به ما هو إلا من أساطير الأولين، اقرأ قوله تعالى في سورة الفرقان:

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْهِ كَذِبًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ بِأَكْلٍ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُضُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ .

وهكذا نجد منطق الشرك والضلال، في كل عصر وزمان، منطقاً واحداً لا يكاد يتغير. . فما بعث الله نبياً إلا وقف المشركون في وجهه وقفة (استكبار وعناد) يتساءلون: إنه بشر مثلنا؟ يأكل كما نأكل، ويشرب كما نشرب، وينام كما ننام!! لماذا لا يكون من الملائكة؟ لماذا لا يكون من الأشراف العظماء، من أهل الثروة والغنى والسلطان؟ استمع إلى موقف الجحود والعناد في قصة نوح عليه السلام:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِي أُعْبِدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ

(١) سورة الفرقان: الآيات (٧ - ١١).

﴿٣٢﴾ فَقَالَ الْمَلَأُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ﴿٣١﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتْرِصَّوْا بِهِ، حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١﴾.

واستمع إلى موقف (عاد) مع نبي الله الكريم (هود):

﴿ وَقَالَ الْمَلَأَمِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَا كُلُّ مَمَّاتٍ كُلُّونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَعِدُّوا أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَهُنَا هَهُنَا لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٢﴾.

واستمع أيضاً إلى موقف (الطغيان) يُمثله فرعون الأثيم مع زبانيته في وجه النبيين الكريمين (موسى وهارون) عليهما الصلاة والسلام:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا اتُّؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٣﴾.

ثم انظر إلى موقف كفار قريش من دعوة سيد الرسل محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَازُوكَ إِلَّا هُرُوا أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ هِجْرَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾.

(١) سورة المؤمنون: الآيات (٢٣ - ٢٥).

(٢) سورة المؤمنون: الآيات (٣٣ - ٣٦).

(٣) سورة المؤمنون: الآيات (٤٥ - ٤٨).

(٤) سورة الفرقان: الآيات (٤١ - ٤٢).

إنه موقف واحد لا يكاد يتغير. . موقف أملاء عليهم الطغيان، والعناد، والاستكبار. . وكأنهم عموا أو تعاموا عن حكمة الله الأزلية، في أن يكون النبي المرسل إلى الخلق، من البشر لا من الملائكة وصدق الله حيث يقول:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْمُونَ﴾^(١).

* * *

(١) سورة النحل: الآية (٤٣).

مهمة الرسل الكرام

- ٩ -

لما كان العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر، وكانت هناك بعض الأمور الغيبية العظيمة، التي لا يمكن للإنسان معرفتها إلا عن طريق الوحي وعن طريق الشرع، كالإيمان بالله تعالى: وبصفاته العلية، والإيمان بالملائكة وبالبعث والنشور إلى غير ذلك من الأمور الغيبية. لذلك فقد اقتضت حكمة الباري جل وعلا أن يبعث إلى الخلائق الأنبياء الكرام، ليقطع على البشر معاذيرهم، ولئلا يبقى لإنسان حجة عند الله يوم القيامة، كما قال سبحانه:

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١).

وليكون هؤلاء الرسل قُدوة للناس، يتأسون بهم في أقوالهم وأفعالهم، وسجاياهم الحميدة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَ﴾ (٢).

ولا بدّ للإنسان كي يسلك الطريق المستقيم، من داع يدعو إلى الخير، ومرشد يرشده إلى نور الهداية والعرفان، ولهذا بعث الله الرسل، ليكونوا منارات للهدى، وأعلاماً للفضيلة، وينشروا النور والضياء في أرجاء المعمورة، ولهؤلاء الرسل وظائف جليلة، ومهام جسيمة، نذكرها في الآتي مع شيء من التفصيل والبيان.

(٢) سورة الأنعام: الآية (٩٠).

(١) سورة النساء: الآية (١٦٥).

وظائف الرسل صلوات الله عليهم

- ١٠ -

أولاً: دعوة الخلق إلى عبادة الله الواحد القهار. وهذه - في الحقيقة - هي الوظيفة الأساسية، بل هي المهمة الكبرى التي بُعثَ من أجلها الرسل الكرام وهي تعريف الخلق بالخالق - جل وعلا - والإيمان بوحديته، وتخصيص العبادة له دون سواه، كما قال جل ثناؤه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾^(١).

وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ... ﴾^(٢) الآية.

ثانياً: تبليغ أوامر الله عز وجل ونواهيه إلى البشر، فالأوامر الإلهية لا بد لها من مُبلِّغ، ولا بد أن يكون هذا المبلِّغ من البشر ليتمكن الأخذ عنه، ولهذا فقد اختار الله عز وجل الرسل من البشر، لنحكمة السابقة التي ذكرناها، وقد أدى الرسل الكرام هذه الوظيفة على أكمل الوجوه، فلم يتأخر واحد منهم عن تبليغ دعوة الله، وفيهم يقول القرآن الكريم:

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

(٢) سورة النحل: الآية (٣٦).

﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (١).

وقد جعل الله تعالى علامة الرسول (تبليغ الرسالة) وخاطب سيد الأنبياء بقوله عز من قائل:

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

ثالثاً: هداية الناس وإرشادهم إلى الصراط المستقيم.

وهذه الوظيفة مهمة كل رسول كما قال تعالى في شأن موسى عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣).

وكما قال في شأن خاتم الرسل عليه السلام:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤).

رابعاً: ليكون الرسل قدوة حسنة، وأسوة صالحة للبشر. فالرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والتسليم، هم القدوة الحسنة والأسوة الصالحة لجميع البشر، وقد أمرنا الله عز وجل بالافتداء بهم، والسير على منهاجهم، وجعلهم نماذج

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٩).

(٢) سورة المائدة: الآية (٦٧).

(٣) سورة إبراهيم: الآية (٥).

(٤) سورة الأحزاب: الآيتان (٤٥ - ٤٦).

للكمال، وعنواناً للفضل لأنهم أكمل الناس عقلاً وأطهرهم سلوكاً، وأشرفهم رتبة ومنزلة، قال تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١).

وقال تعالى :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أُمَّتُهُمْ أقتدَةٌ...﴾ (٢) الآية.

خامساً: التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال، وإلى ذلك تشير الآيات البيئات.

قال الله تعالى :

﴿يَمَعَشَرِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ الَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَفْصُونَ عَلَيْكُمْ ءآيَتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِم أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٣) ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (٤).

سادساً: تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية.

فلقد بعث الله الرسل الكرام ليحولوا أنظار البشر من هذه الحياة الزائلة إلى

تلك الحياة الباقية الخالدة وهي (الدار الآخرة) كما قال تعالى :

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

(١) سورة الأحزاب: الآية (٢١).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٩٠).

(٣) سورة الأنعام: الآيتان (١٣٠ - ١٣١).

(٤) سورة العنكبوت: الآية (٦٤).

وكما قال جل ثناؤه:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ... ﴿١﴾ الآية.

سابعاً: وأخيراً لثلا يبقى لإنسان حجة عند الله، كما قال تعالى:

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِثَلَاثٍ لِيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿٢﴾﴾.

أي بعثهم بالبشارة والإنذار، ليقطع على الناس معاذيرهم، حتى لا يقول أحد من الخلق، لو أن الله أرسل إليّ رسولاً لأمنت وأطعت، كما نبّه تعالى في سورة طه بقوله تقدّست أسماؤه:

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴿١٣٤﴾﴾!؟^(٣)

هذه أهم وظائف الرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام ذكرناها
بإيجاز والله الموفق والهادي إلى سوء السبيل.

• • •

(١) سورة الحديد: الآية (٢٠).

(٢) سورة النساء: الآية (١٦٥).

(٣) سورة طه: الآية (١٣٤).